التجربة القاموسية العربيَة

د .عبد اللطيف عبيد
أستاذ المعجمية والقاموسية والمصطلحية – المعهد العالي للغات بتونس

1 . المعجم والمعجميّة والقاموس والقاموسيّة

« المعجم » في اللغة العربية مصطلح لساني (لغويّ) يسمّي المفهومين التاليين :

1) مجموع ألفاظ اللغة مفردة كانت أو مركّبة ؛

2) الكتاب (المؤلّف / المصنّف) الذي تجمع فيه ألفاظ اللغة جلّها أو بعضها، وترتّب ترتيبا ألفبائيا أو غير ألفبائي، وتكون مصحوبة ببيانات ـ تسمّى بيانات قاموسيّة ـ أخصّها الشرح أو التعريف .

وقد درج عدد من الدارسين، في السنوات الأخيرة، على تسمية هذا المفهوم الثاني بـ« القاموس »، تخلّصا من الاشتراك الحاصل من استعمال لفظ « المعجم » للدلالة على كلا المفهومين. وفي ورقتنا هذه نتبنّى هذا الاختيار، ونميّز بين « المعجم » و« القاموس » تبعا لما بين المفهومين المذكورين آنفا من اختلاف .

ويطلق على العلم اللغوي الذي يدرس ألفاظ اللغة (أي معجمها) من حيث تاريخها وحركيتها واشتقاقها وصيغها وأنواع العلاقات بين اللفظ والمعنى داخل الكلمة : « المعجميّة » Lexicology . وهذا المصطلح،الذي هو مصدر صناعيّ دالّ على العلم المومأ إليه، قد يكون الأنسب والأصلح من بين مرادفاته العديدة الأخرى التي منها : علم المفردات، دراسة المفردات، علم متن اللغة، علم المعاجم النظري، علم المعجم، علم دراسة الألفاظ، المفرداتيّة . . .إلخ .

أمّا العلم ـ أو بالأحرى الفنّ / التقنية ـ الذي يهتمّ بالقواميس من حيث تأليفُها (صناعتها) عامّة واختيار ألفاظها (مداخلها) وترتيب تلك الألفاظ وتحرير مختلف البيانات المتصلة بها خاصّة، فقد أصبح العديد من الدارسين في أقطارنا العربية يتجهون أكثر فأكثر إلى تسميته بـ « القاموسيّة » Lexicography ، متخليّن شيئا فشيئا عن مرادفات أخرى عديدة منها : صناعة المعاجم، المعجميّة، المعاجمية، المعجميّات، علم المعاجم، علم المعاجم التطبيقي، فنّ صناعة المعاجم، علم الصناعة القاموسيّة . . .إلخ[1] . وإنّ العلاقة بين هذين العلميْن، أو على الأصحّ بين

1) انظر بعض التفاصيل حول هذه المسألة المصطلحية في :

أ . الدكتور أحمد مختار عمر: صناعة المعجم الحديث، ط1، عالم الكتب، القاهرة 1998 (213 ص)، ص 20–22 .

ب . الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل صالح : دراسات المعجمية والمصطلحية ـ « قائمة ببليوجرافيّة » ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1420 هـ/1999م (207 ص) ، ص 11–15 .

ج.د. سعيد جبر أبو خضير : « في إشكاليّة تعريف مصطلح المعجميّات « ، المجلة الأردنيّة في اللغة العربية وآدابها، م3، ع1، ذو الحجة 1427 هـ/ كانون الثاني 2007 م، ص 55–71 .

ذاك العلم : المعجميّة Lexicolgy وهذا الفنّ العملي : القاموسيّة Lexicograhy، هي علاقة النظري بالتطبيقي. فالمعجمية أساس للقاموسية، ومعرفة قضايا المفردات من تأصيل (تأثيل) واشتقاق وترادف واشتراك وتجانس وتضادّ وحقيقة ومجاز، إضافة إلى قضايا التغيّر والتطوّر اللغويين، والمسائل المتصلة بالفصحى والعامية والعلاقات بينهما زمانيّا وآنيا، وقضايا المعرّب والدخيل والمولّد، ومستويات اللغة والمعيار اللغوي... الخ، هي من مسائل المعجمية التي لا يستغني عنها إطلاقا القاموسيّون. وإنّ تأليف أي قاموس لغوي، مهما كان حجمه ومهما كان جمهوره المستهدف، يعدّ تأليفا ناقصا أو ضعيفا إن لم يكن مبْنيّا على دراية كافية ومعرفة ضافية بهذه المسائل المعجمية الجوهرية التي تجد في القاموس تطبيقا عمليّا لها.

2. القاموسية العربية : الإنجاز والريادة

للقاموس العربي عامّة واللغوي منه خاصّة تاريخٌ طويل ساير تاريخ العرب منذ أن نشطت حركة التدوين لديهم على أثر نزول القرآن الكريم الذي أقبلوا على حفظه وشرح غامضه وتفسير مبهمه مستعينين بسنّة نبيّه الأمين ورصيدهم اللغوي وتراثهم الأدبي. ولا تزال جهود وضع القاموس العربي المثالي أو الأقرب إلى المثالية جهودا حثيثة متواصلة إلى يومنا هذا.

لقد أحصى الباحث المغربي الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال في كتابه القيّم : «معجم المعاجم»[1] ألفا وأربعمائة وسبعة قواميس. وقد قصر ببليوغرافيته المهمّة هذه « على المعاجم التراثية دون سواها مما مسّته الحداثة بأثر قليل أو كثير »[2]. ويتّصف هذا التراث القاموسي بتعدّد موضوعاته، وغزارة مادته، وتنوّع أساليب عرضها، وسعيه المتواصل إلى الاستقصاء والاستيعاب، وهو ما دعا المستشرق الألماني الشهير أوغست فيشر صاحب مشروع « المعجم اللغوي التاريخي » إلى القول بأنه « إذا ما استثنينا الصين، فلا يوجد شعب آخر يحقّ له الفخار بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكّر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها، بحسب أصول وقواعد، غير العرب... »[3]. كما شهد للعرب بالسبق والتميّز في وضع القواميس اللغوية وغير اللغوية جون أ.هيوود Haywood.

---

1) أحمد الشرقاوي إقبال : معجم المعاجم ـ تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، 391ص.

ومن أهم الببليوغرافيات القاموسية العربية التي اهتمت بالقواميس العربية اللغوية والمتخصّصة، التراثية منها والحديثة، نذكر ما يلي :

أ. سمير عبد الرحيم الجلبي : ببليوغرافيا الترجمة والمعاجم للوطن العربي، دار الجاحظ، بغداد 1977، 130ص.

ب.مسفر سعيد الثبيتي ود. محمود اسماعيل صيني (صالح) : المراجع المعجمية العربية ـ أحادية اللغة وثنائية اللغة ومتعدّدة اللغات، مكتبة لبنان، بيروت 1989، 332 ص.

ج. وجدي رزق غالي : معجم المعجمات العربية ـ رصد حصري شارح للمعجم العربي المطبوع، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1993، 285ص.

2) أحمد الشرقاوي إقبال : المرجع نفسه، المقدمة، ص : ي.

3) أ.فيشر : المعجم اللغوي التاريخي، القسم الأوّل، من أوّل « حرف الهمزة » إلى « أبد »، ط1، مجمع اللغة العربية، القاهرة 1967 (53ص)، ص4.

John A في كتابه « القاموسيّة العربيّة » ، فهو يرى « أنّ العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز، سواء في الزمان أو المكان، بالنسبة إلى العالم القديم أو الحديث، وبالنسبة إلى الشرق أو الغرب »[1]. ويضيف هيوود أنه « كان للعرب معجم شامل هو « لسان العرب » كانت دونه دقّة وشمولا معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر »[2].

وقد تمكّن القاموسيون العرب، من خلال الإنتاج الغزير الذي ساعد على تراكم التجربة القاموسيّة، من أن يطوّروا شيئا فشيئا فنّ وضع القواميس أو ما سميناه بـ»القاموسيّة»، وهو فنّ استحدثوه ولا شيء يدلّ إطلاقا على أنّهم استقوه من أمم أو لغات أخرى. ونحن لا نغالي عندما نقول إنّ العرب هم روّاد «القاموسيّة» العالميّة، وإنّ إنجازهم في الشّقّ المنهجي والنظري للقاموس لا يقلّ أهمية عمّا أنجزوه في الشق العملي التطبيقي.

ومن أهمّ مبادئ القاموسية في التراث العربي مبدآ « الجمع » و« الوضع »، وهما مبدآن توصّل إليهما ابن منظور (ت 711 هـ/ 1311 م) وحلّلهما في مقدّمة قاموسه الشهير : « لسان العرب »، واعتمدهما في نقد قواميس السابقين وفي تأليف قاموسه الجامع الذي لا يزال، إلى يومنا هذا، أحد المصادر الأساسية للقاموس العربي. يقول ابن منظور في سياق حديثة عن القواميس التي ألّفت قبله إنه رأى « علماءها بين رجليْن: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأمّا من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع »[3]. وواضح من كلام مؤلّف « لسان العرب » أنّ القاموس يقوم على ركنين : ركن أوّل هو الألفاظ التي ينبغي أن تستقى من مصادرها وتختار بناء على مبادئ أو معايير تكون واضحة، في ذهن القاموسي، وذاك هو الجمع ؛ وركن ثان يتمثل في معالجة الموادّ اللغوية ترتيبا وشرحا واستشهادا وتمثيلا وإيرادا لمختلف البيانات التي ينتظرها المستعمل أو المستفيد، وهذا هو الوضع. وتكوّن مختلف جوانب الجمع والوضع ما يعرف في القاموسية الحديثة بـ»عناصر القاموس » اللغوي[4].

---

1) نقلا عن د. أحمد مختار عمر : المرجع المذكور سابقا (الهامش 1–أ) ، ص 27.

2) نقلا عن د. عدنان الخطيب : المعجم العربي بين الماضي والحاضر، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1994 (92 ص) ، ص 5.
وعنوان كتاب هيوود هو :
Arabic lexicographye": It's History, and"It's Place in the General History of Lexicography, Leiden, E. J. Brill,19665.
ويبدو أنّ للكتاب ترجمة عربية طبقا لما ورد في بحث د. سعيد جبر أبو خضير(المرجع المذكور سابقا الحاشية 1.ج) هي التالية :
– جون أ. هيوود : المعجمية العربية : نشأتها ومكانتها في تاريخ المعجميات العامّ، المجمع العلمي، بغداد 2004.

3) ابن منظور : لسان العرب المحيط، إعداد وتصيف يوسف خيّاط، دار لسان العرب، بيروت (د.ت)، ج1، المقدّمة، ص :خ.

4) انظر حول عناصر القاموس اللغوي ما يلي على سبيل المثال :
Matoré Georges : Histoire des dictionnaires français ,Larousse Paris ,1968 p 278.
د. محمّد رشاد الحمزاوي : المعجم العربي ـ إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة، تونس 1991، 442ص.
د.علي القاسمي : علم اللغة وصناعة المعجم، ط3، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 2004، 223ص.

وبإمكاننا استخدام هذين المبدأين القاموسيين الأساسيين ـ الجمع والوضع ـ لدراسة التجربة القاموسية العربية في ماضيها وحاضرها، واستخلاص عدد من العبر والدروس التي قد تساعد في تأليف القاموس العربي اللغوي الحاسوبي الذي نأمله.

لقد مرّت التجربة القاموسية العربية بمرحلتين كبيرتين تضمّنت كلّ منهما مراحل فرعية ، وهاتان المرحلتان هما المرحلة القديمة التي تبدأ بنشأة القاموس العربي في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة (إلى أواسط القرن 9 م)، وتنتهي مع « تاج العروس » للزبيدي في نهاية القرن الثاني عشر للهجرة (أواخر القرن 18 م).

أمّا المرحلة الثانية فهي التي نعيشها إلى يومنا هذا مع تنوّع كبير في مراحلها الفرعيّة، وتبدأ بظهور المطبعة ونشر المعاجم التراثية ثم تأليف المعاجم الحديثة في لبنان ومصر وغيرهما وذلك سواء على أيدي اللغويّين العرب أو من قبل المستشرقين الهولنديين والإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم.

3 .التجربة القاموسية العربية القديمة

1.3 مرحلة النشأة والتأسيس : الرسائل اللغوية، وكتاب العين

1.1.3 الرسائل اللغوية

كان لظهور الدين الإسلامي الحنيف واهتمام المسلمين منذ وقت مبكّر بجمع القرآن وتفسيره وتوضيح غامضه دور أساسي في نشأة الدراسات اللغوية بمختلف أنواعها ومنها تدوين اللغة. وخلال فترة قد تزيد قليلا على قرن من الزمان (أواسط القرن الثاني ـ أواسط القرن الثالث للهجرة) ظهر لغويّون كبار رأوا أنّ «العربية الفصحى، هي العربية النقية من الشوائب، التي لم تخالطها لغة أخرى »[1] و »أن أفصح اللغات هي لغات البدو، البعيدين عن الاختلاط في أواسط البيداء، وإذن فالطريق إلى الحكم على سلامة اللغة وفصاحتها ونقائها هو قياسها على لغة هؤلاء البدو، والطريق إلى تعلّم الفصحى هو معاشرتهم، وهذا هو ما حدث فعلا »[2]. وقد كان للغة هؤلاء البدو دور أساسي في تفسير ما عرف باسم « غريب القرآن » و « غريب الحديث »، إضافة إلى أنها كانت ضرورية لفهم أشعار العرب مثلما إنّ أشعار العرب قد ساعدت على شرحها وفهمها.

---

1) د. حسين نصّار : المعجم العربي ـ نشأته وتطوّره، (جزآن)، ج1 ،ط2، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1968، ص 27.

2) الموضع نفسه.

وانظر أيضا :

د. عبدالحميد الشلقاني : رواية اللغة، دارالمعارف، القاهرة 1975، 399ص.

وكانت نتيجة هذه الحركة اللغوية العظيمة ـ وهي بحقّ حركة تأسيسيّة ـ تأليف عشرات بل مئات من الكتب اللغوية الصغيرة ـ وتسمّى « الرسائل اللغويّة » أو « الكتب المفردة » ـ في مختلف الموضوعات ذات الصلة ببيئة الإنسان العربي الطبيعية والثقافية والروحية. وقد قسم الدكتور حسين نصّار هذه « الرسائل اللغوية على الموضوعات « إلى تسعة أبواب هي « كتب الغريبين والفقه، وكتب اللغات والعامي والمعرّب، وكتب الهمز، وكتب الحيوان، وكتب النوادر، وكتب البلدان والمواضع، وكتب الإفراد والتثنية والجمع، وكتب الأبنية، وكتب الصفات. وتعدّ الرسائل المندرجة ضمن هذه الأبواب أو المجموعات ما قد يزيد على تسعمائة رسالة (كتاب) طبقا للإحصاء الذي أجراه الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال[1].

وقد ارتحل هؤلاء اللغويون إلى البادية، وأخذوا اللغة مشافهة عن العرب الفصحاء الأقحاح، واشترطوا في من أخذوا عنهم شروطا عديدة حفلت بها كتب اللغة، وتقيّدوا في جمعهم للغة بقيود زمانية ومكانية. وفي الجملة فإنهم لم يأخذوا عن الحضر،وجعلوا القبائل درجات في الفصاحة، واعتبروا أن عصر الاحتجاج بلغة هؤلاء الذين رووا عنهم ينتهي إجمالا بنهاية القرن الثالث[2] قبل أن يعمّ اللحن ويفشو الخطأ لفساد السليقة بمخالطة الأعاجم وسكنى الحواضر.

ولم يتقيّد مؤلفو هذه الرسائل بمنهج دقيق في ترتيب الألفاظ التي جمعوها، وإن كانوا قد قسّموها عموما إلى موضوعات جزئية تتفرّع من الموضوع العامّ. ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل اللغوية علي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ/805م) الذي ينسب إليه « معاني القرآن » و« المصادر » و« الحروف » و« ما تلحن فيه العامّة »، وأبو عمرو الشيباني (ت206هـ/821م) الذي ينسب إليه « الحروف » و« غريب الحديث » و« النحلة »، و« الإبل » و« الخيل » و« النوادر » و« خلق الإنسان »، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت 209هـ/824 م) الذي ينسب إليه « ما تلحن فيه العامّة » و« الإنسان » و« الزرع » و« الشوارد » و« معاني القرآن » و« غريب الحديث »، والأصمعي (ت 216هـ 831م) الذي ينسب إليه « غريب الحديث » و« الإبل « و« الأضداد » و« النحل » و« الإنسان » و« المترادف » و« النبات » و« الخيل » . . .الخ.

وإنّ أهمية الرسائل اللغوية تتمثل أساسا في أنها كانت الخطوة الأولى التي مهّدت لظهور القواميس بل كانت المادة الأساسية التي اعتمدها القاموسيون العرب الكبار في القرن الرابع الهجري وما بعده. وإذا عرفنا أنّ القواميس اللغوية العربية الحديثة التي بدأ تأليفها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتواصل إلى ستينات القرن العشرين مع « المعجم الوسيط » لمجمع

1) أحمد الشرقاوي إقبال : المرجع المذكور سابقا،المقدّمة، ص : ز– ح.

2) انظر مثلا :

كامل محمد أبو سنينة : « لغة الاحتجاج » ، أطلس للدراسات اللغوية (مجلّة)، مركز أطلس العالمي للدراسات والأبحاث بعمّان (الأردن)، المجلد الثاني، العدد الثاني، حزيران 2001، ص44.

اللغة العربية بالقاهرة، بل إنه لا يزال متواصلا إلى يومنا هذا، قد اعتمدت اعتمادا يكاد يكون كليا على معاجمنا التراثية ـ مثل لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت 817 هـ/ 1415 م) ـ أدركنا سرّ غلبة نزعة البداوة والمحافظة والتقليد على قاموسنا اللغوي العربي الحديث ولاتاريخيّته، ممّا جعل تأليف قاموس عربي عصري جمعا (مادة) ووضعا (عرضا) مطلبا قوميّا ملحّا.

2.1.3. كتاب العين للخليل بن أحمد

لئن كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ/ 786 م) قد ألّف قاموسه المشهور « كتاب العين » أثناء مرحلة تأليف الرسائل اللغوية، فإن قاموسه هذا قد جاء متميّزا عن تلك الرسائل حجما ووضعا. وقد كان الخليل ـ ويصفه البعض بـ « أذكى العرب » ـ رياضيا وعروضيّا وموسيقيا ونحويّا وقاموسيّا في آن واحد، وقد أوتي من النباهة والذكاء ما جعل إنجازه القاموسي إنجازا عظيما فريدا غير مسبوق. وقد أعمل الخليل فكره « في جمع ألفاظ اللغة بطريقة حاصرة، تقوم على الحساب العقلي، حتى لاتشذّ عنه كلمة، أو تندّ عنه لفظة ، فضلا على درء مظنّة تسرّب لفظة غير عربية إلى الألفاظ العربية التي أنشأ كتابه من أجلها، ومن ثمّ فقد ابتكر نظام التقليبات »[1]. كما عمد الخليل إلى التزام نظام آخر محكم لا يتسرّب من خلاله خطأ، ولا يقع معه سهو أو تكرار، وهو تقسيم الكتاب إلى أبواب بحسب كمية اللفظة من الحروف، فبدأ بالثنائي في الألفاظ، ثمّ الثلاثي، ثم الرباعي، ثمّ الخماسي.

والمقصود بـ « التقليب » عند الخليل هو تقديم الحرف في الكلمة مرة وتأخيره أخرى بحيث يحصل من الثنائي على صورتين، ومن الثلاثي على ست، ومن الرباعي على أربع وعشرين صورة أو تقليبا، ومن الخماسي على مائة وعشرين صورة حاصلة من تقاليبه. وقد ذكر الخليل أن مبلغ عدد الأبنية في كلام العرب « اثنا عشر ألفا وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر » أي ما يزيد على اثني عشر مليون لفظ، على أنّ هذه الألفاظ جلّها « مهمل » وقليلها « مستعمل ».

إنّ الخليل بن أحمد هو رائد التأليف القاموسي العربي بلا منازع، وهو « لم يسبق إلى هذا النوع من التأليف وإنما كان هو الفارس المعلّى في هذا المضمار، واللغويون كلّهم له تبع »[2]. ولا ريب أن منهج الخليل قد كان بمثابة « برمجية حاسوبية » عصرية قادرة على الإحاطة بكلّ ألفاظ اللغة، الموجود منها بالفعل (المستعمل والموجود بالقوة (المهمل).

---

1) د. صلاح راوي : المدارس المعجميّة العربية : نشأتها ـ تطوّرها ـ مناهجها، دار الثقافة العربية، القاهرة 1990، (279 ص) ، ص 72.

2) المرجع نفسه، ص 90.

والخلاصة بالنسبة إلى هذه المرحلة الأولى ـ مرحلة الرسائل اللغوية وكتاب العين ـ أنّها كانت مرحلة التأسيس الفعلي للقاموس العربي. ومن الصعب فهم معضلات القاموس اللغوي العربي إنْ لم ندرك حقيقة هذه المرحلة التي انبنت عليها المراحل اللاحقة بما فيها المرحلة الحالية.

2.3 المدارس القاموسية العربية القديمة

حاول الدارسون إدراج القواميس اللغوية العربية الكثيرة التي ألفها اللغويون العرب والمستعربون منذ «كتاب العين» للخليل في مجموعات رئيسية متشابهة اعتبروها تمثّل «مدارس قاموسيّة». وإنّ ما يجمع بين القواميس المنتمية إلى «المدرسة» الواحدة هو، أساسا، ما بينها من تماثل أو تشابه في «الوضع» ـ حسب مفهوم ابن منظور ـ لا «الجمع». فحسين نصّار يميّز بين أربع مدارس أولاها المدرسة التي يسميّها غيره «مدرسة التقليبات»، وتتألف خاصّة من «العين» للخليل و«البارع» لأبي علي القالي (ت 356 هـ/ 967) و«المحكم» لابن سيده (ت 1066 / 458م)؛ وثانيتها المدرسة التي تمسكت بالترتيب الألفبائي وأهملت ترتيب الحروف على المخارج لكنها تمسكت بنظام الأبنية الخليلي، وتضمّ «الجمهرة» لابن دريد (ت 321هـ/ 933م) و«مقاييس اللغة» و«المجمل» لابن فارس (ت 395هـ/ 1004م)؛ وثالثتها المدرسة التي يسميها غيره «مدرسة القافية» لأنها ترتب المداخل بحسب الحرف الأخير، وتضمّ «كتاب الصحاح» للجوهري (ت 393 هـ / 1003م) و«العباب» للصاغاني (ت 1252 / 650م) و«لسان العرب» لابن منظور و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي؛ والمدرسة الرابعة هي التي سمّاها غيره «مدرسة الأبجدية العربية»،ويمثلها «أساس البلاغة» للزمخشري (ت 538 هـ/1144م)، وقد اعتمدت ترتيب حروف المعجم تبعا لحرف الكلمة الأوّل مع طرح نظام الأبنية والمقلوبات.

وقسّم الدكتور عدنان الخطيب المدارس القاموسيّة إلى خمس، إذ أضاف مدرسة اعتمدت الموضوعات ومعاني الكلمات دون الالتفات إلى حروفها، ويمثلها «الغريب المصنّف»، لابن سلاّم (ت 224هـ/ 838م) و«الألفاظ» لابن السكيت (ت 244هـ / 858م) و«المخصص» لابن سيده[1]. ويلاحظ من استعراض القواميس الكثيرة التي تضمّها هذه المدارس الأربع أو الخمس أن تأليفها ـ وخاصة في القرن الرابع الذي هو بحق قرْن القواميس الكبيرة الجامعة ـ قد كان الغرض منه تحقيق أمرين أساسيْن هما «التزام الصحيح من الألفاظ، وتيسير البحث عن الموادّ»[2]. وهذه الألفاظ الصحيحة هي الألفاظ البدوية الأعرابية في المقام الأوّل والتي كان رواة اللغة قد جمعوها في القرنين الثاني والثالث كما مرّ، ورحلوا إلى البادية بحثا عنها لفصاحتها وبعد متكلميها عن العجمة واللحن. وإنّ ما أضافه اللاحقون إلى ما دوّنه السابقون من القاموسيين يعدّ، في الغالب،

1) د. عدنان الخطيب : المرجع المذكور سابقا، ص 45.

2) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 486.

محدودا ؛ لذلك غلبت على المعاجم التقليدية التراثية ظاهرة التقليد والتكرار، وهي ظاهرة تواصلت في قواميس القرنين التاسع عشر والعشرين .وبناء على ذلك فإنّ قواميسنا اللغوية التراثيّة لم تتضمّن من الألفاظ الحضارية التي عرفها العصر العباسي وغيره من عصور الحضارة العربية الإسلامية مشرقا ومغربا وزخرت بها كتب الأدب والتاريخ والجغرافيا والحسبة والفقه والفلسفة والعلوم المادية إلاّ القليل النادر. وقد وضّحت مقدّمة «لسان العرب» لابن منظور منهج القاموسية العربية القديمة القائم على النقل عن السابقين من القاموسيين [1] والاقتصار على مدوّنة محدودة من حيث المصادر والموضوعات والمكان والزمان، ممّا حرم القاموس العربي من ثروة لفظية واقعية حيّة دالّة على حيوية اللغة العربية وتفاعلها مع الواقع الحضاري المتغيّر.

وقد انبرى الدارسون، منذ القديم، لنقد القواميس اللغوية العربية وتتبّع سقطاتها والاستدراك عليها، ومن أشهر هؤلاء في عصر النهضة الحديثة أحمد فارس الشدياق مؤلّف « الجاسوس على القاموس» الذي نقد فيه « القاموس المحيط» للفيروزآبادي خاصّة والقاموس العربي عامّة. وقد تناول هذا النقد ركني القاموس وهما الجمع والوضع كما سبق أن بيّنا. ويرى الدكتور حسين نصّار أنّ « عيوب المعاجم القديمة»[2] تتمثل خاصة في كثرة التصحيف وما يتصل به من وضع وانتحال، وعدم تمثل المؤلّفين للغرض من القاموس إذ أرادوا أن يجمعوا اللغة بواضحها وغريبها ونادرها ولغاتها (لهجاتها) وأن يجمعوا معها معارف العرب وجوانب مختلفة من الثقافة العربية « حتى أصبحت معاجمنا كبرج بابل» حسب عبارته. كما تتمثل هذه العيوب في القصور، إذ رغم ما في القواميس من حشو فإنه ليس منها ما هو جامع لكلّ كلام العرب، وأغلبها يرجع إلى لهجات ويهمل أخرى كما يهمل المولّد. وتتمثل العيوب أيضا في اضطراب الترتيب وتعقدّه غالبا، وكذلك في قصور العرض وإبهامه وسوء التفسير وتقليد اللاحقين لشروح السابقين وأمثلتهم وشواهدهم...

---

1) يقول ابن منظور : «فجمعت منها (أي الأصول الخمسة) في هذاالكتاب ما تفرّق، وقرنت بين ماغرّب منها وبين ما شرّق، فانتظم شمل تلك الأصول كلّها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولائك بمنزلة الفروع (...) وأنا مع ذلك لا أدّعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت، أو فعلت أو صنعت، أو شددت أو رحلت، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت (...) وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها، سوى أني جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم ،وبسطت القول ولم أشبع باليسير ...». أما الكتب الخمسة التي جمع منها ابن منظور مادة قاموسه فهي تهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده والصحاح للجوهري وحواشي ابن برّي والنهاية لابن الأثير.

2) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 747-759.

وانظر حول عيوب القواميس العربية وخاصّة على مستوى مادتها المصطلحيّة :

مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية في اللغة العربيّة في القديم والحديث، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، 1988(218ص)، ص 33-40.

4 .التجربة القاموسية العربية الحديثة

1.4 الطباعة وإحياء القاموس العربي في القرن التاسع عشر

كانت الطباعة في البلدان العربية من آثار الاتصال بالمدنية الغربية. وقد أدّت الطباعة دورا تنويريا عظيما وأسهمت إسهاما كبيرا في تجديد الثقافة العربية وإحياء تراثها الزاخر ومنه التراث القاموسي. وقد احتاجت النهضة اللغوية والأدبية إلى الاستعانة بالقواميس للتمكن من إحياء اللغة وآدابها، فـ« اعتمد الناس في بادئ الأمر على المعجمات القديمة، وقام البعض بإعادة طبع المعروف منها وبطبع ما كان مخطوطا، لتسيهل تداولها بين الناس »[1]. وهكذا طبع خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر عدد مهمّ من القواميس العربية الكبيرة منها « تاج اللغة وصحاح العربية » للجوهري (1865م) و« مختار الصّحاح » للرّازي (1870) و« القاموس المحيط » للفيروزآبادي (1872 م) و« المصباح المنير » للفيّومي (1876) و« لسان العرب » لابن منظور و« أساس البلاغة » للزمخشري (1882) و« تاج العروس » للزبيدي (1889) إلخ . . .

وقام بعض اللغويين بإعادة ترتيب بعض القواميس القديمة على حروف هجاء أوائل الكلمات بقصد تسهيل الرجوع إليها، وتشجيع طلاب المدارس على استعمالها. وقد ساعد نشر هذه القواميس على قيام حركة نقد نشيطة للقاموس العربي القديم كان من أعلامها أحمد فارس الشدياق كما أشرنا، وكذلك العلامة أحمد تيمور الذي تتبع أوهام وأغلاط لسان العرب والقاموس المحيط[2].

2.4 الاستشراق الأوربي والقاموس العربي

اهتمت الحركة الاستشراقيّة الأوربية في القرن التاسع عشر بالقاموس العربي اهتماما كبيرا، وكان ذلك على مستوى الكشف والتحقيق والنشر والدراسة والتأليف. وعلى سبيل المثال، نشر ماتيو لمسدن (ت 1835) الإنجليزي « القاموس المحيط » بكلكتا سنة 1817 م في جزئين مع مقدّمة بالإنجليزية وترجمة لصاحبه بالعربية، وألّف الإنجليزي إدوار وليام لين (ت 1876) قاموسا كبيرا عربيا ـ انجليزيا هو « مدّ القاموس » في ثمانية أجزاء، وألف رينهارت دوزي (ت 1883) الهولندي قاموسا لما فات القواميس العربية سمّاه « تكملة القواميس العربية »، وقد طبع في ليدن سنة 1881[3]. ومن أهمّ فوائد الاستشراق القاموسي الكشف عن كلمات عربية كثيرة أهملتها قواميسنا القديمة بحجّة عدم توفّر معايير الفصاحة فيها.

---

1) د.عدنان الخطيب : المرجع المذكور سابقا، ص 47.

2) المرجع نفسه، ص51.

3) انظر مثلا : أحمد الشرقاوي إقبال : المرجع المذكور سابقا، المقدّمة، ص:ب ـ د.

3.4 المدرسة القاموسية اللبنانية إلى مطلع القرن العشرين

كان من نتائج النهضة التي عرفها لبنان في القرن التاسع عشر نشوء « حركة لغوية واسعة، شارك فيها عدد من اللبنانيين فأسهموا إلى حدّ كبير في بعث اللغة العربية وإحيائها من جديد »[1]. وقد اهتمّ روّاد النهضة اللغوية بجوانب ثلاثة رئيسية هي إحياء اللغة والتراث العربيين، ونقد القواميس القديمة، وتأليف القواميس الحديثة.

وفي مجال التأليف، أخرجت المطبعة العربية سنة 1869 قاموسا جديدا في جزئين وضعه المعلّم بطرس البستاني وأسماه « محيط المحيط »، التزم فيه عبارة القاموس المحيط » مع شيء من التصرّف والتهذيب، ورتبه على حروف الهجاء بحسب أوائل الكلمات، ولما وجد قاموسه هذا مطوّلا بالنسبة إلى طلاّب المدارس عمد إلى اختصاره في جزء واحد وأطلق على المختصر اسم « قطر المحيط »[2].

وفي سنة 1889 ألف سعيد الخوري الشرتوني للطلاب أيضا قاموسه المشهور « أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد »، اعتمد فيه على أمهات القواميس وإن كانت عبارة القاموس المحيط فيه أغلب[3]. ويعدّ قاموس الشرتوني أكثر انتظاما من محيط البستاني وأجود وضعا.

وفي سنة 1908 أخرج الأب لويس المعلوف قاموسه « المنجد »، وقد اختصر فيه « محيط المحيط » للبستاني الذي هو نفسه تهذيب لـ « القاموس المحيط ». ويرى بعض الباحثين أنّ « المنجد » يعتبر، إلى اليوم، خير معجم مدرسي للعربية في ترتيبه وإخراجه »[4].

وقد تتالى صدور القواميس التي ألفها اللبنانيون في النصف الأوّل من القرن العشرين، ومن أشهرها « البستان » لعبد الله البستاني (1930 م) و« متن اللغة » لأحمد رضا (1958) وغيرهما... ومن أبرز الخصائص التي تشترك فيها قواميس اللبنانيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أنّ مؤلّفيها قد وضعوها للتلاميذ والطلبة في المقام الأول، في حين أن القواميس قبلهم كانت تؤلّف للعلماء والمتبحرين في اللغة والعلم. ومن تلك الخصائص الانتظام الواضح في ترتيبها، وتخلّصها من كثير من المعلومات غير اللغوية التي كانت تثقل القاموس العربي، واغتناؤها بالمصطلحات العلمية... الخ، إلاّ أن هذا التطوير محدود وخاصة على مستوى الجمع، لأنّ مادّتها لا تزيد كثيرا على ما في « القاموس المحيط » بالخصوص.

---

1) حكمت كشلي : المعجم العربي في لبنان، دار ابن خلدون، بيروت 1982 (344ص)، ص35-36.

2) انظر حول بطرس البستاني وجهوده اللغوية والقاموسيّة :

أ.-حكمت كشلي : المرجع المذكور سابقا، ص 114-123.

ب.د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 711-716.

ج.جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس: في العجميّة العربيّة المعاصرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، (669ص)، ص 305-357.

3) انظر حول قاموس الشرتوني :

أ.- حكمت كشلي : المرجع المذكور سابقا، ص 130-137.

ب.-د.حسين نصّار المرجع المذكور سابقا، ص 716-722.

ج.أحمد طه حسانين سلطان : نظرات نقدية في محيط المحيط للبستاني، القاهرة 1998، 119ص.

4) د.عدنان الخطيب : المرجع المذكور سابقا، ص 53.

4.4 المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

كان من الأغراض التي أنشىء من أجلها مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932 « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدّمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدّد في معاجم أو تفاسير خاصّة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنّبه من الألفاظ والتراكيب »[1]. وقد حقّق المجمع إنجازات مصطلحية وقاموسية عديدة منها « المعجم الوسيط » الذي أصدره في جزئين سنتي 1960 و 1961 بناء على طلب تقدّمت به وزارة المعارف المصرية في سنة 1936 ويتضمّن أن « يسعف (المجمع) العالم العربي بمعجم على خير نمط حديث، بحيث لا يقلّ في نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية، فيجيء محكم الترتيب، واضح الأسلوب، سهل التناول، مشتملا على صور لكل ما يحتاج شرحه إلى تصوير، وعلى مصطلحات العلوم والفنون، وبذا ينتفع به طلاّب العلم، وييسّر عليهم تحصيل اللغة، وشاءت الوزارة أيضا أن يضاف إليه ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن، وكأنها كانت تصوّب إلى شيء شبيه بالمعجم الفرنسي المعروف باسم « لاروس الصغير » [2]. وقد أصدر المجمع في دورته الثالثة قراره بـ « وضع معجم لغوي وسيط » هو التالي : « نظرا إلى حاجة طلاب التعليم الثانوي، ومن في مرتبتهم، وجمهرة المثقفين من أبناء اللغة العربية إلى معجم وسيط، سهل التناول، ميسّر الترتيب، مصوّر، بحيث يتناول من المصطلحات العلمية الصحيحة ما يتعلق بالأسباب الدائرة بين الناس، يقرّر المجمع الشروع في اتخاذ الأسباب للقيام بهذا العمل . . . »[3].

وهكذا فإننا نلاحظ أن المجمع، منذ البداية، لم يتقيّد بالهدف الذي حدّدته وزارة المعارف في طلبها المذكور سابقا، إذ أراد « ألا يقصر المعجم الوسيط على طلاّب التعليم الثانوي ومن في مرتبتهم من المثقفين فرأى أن يسمو به حتى يجعله « مرجعا وافيا للكاتب والدارس المثقّف » فيكون المجمع « قد خرج على هدفه الأول المؤلّف له »[4] حسب تعبير حسين نصّار، إذ الوسيط معجم كبير قد يفوق القاموس المحيط للفيروزآبادي، وهو من أشمل معاجمنا فليس هو إذن للطلبة أو من في مستواهم »[5]. وقد نال « المعجم الوسيط » من الشهرة والانتشار ما لم تنله القواميس الأخرى باستثناء « المنجد » للويس المعلوف. ولاشك أنّ لصدوره عن مؤسّسة لغوية

---

1) مجمع اللغة العربيّة : « مرسوم بإنشاء مجمع ملكي للغة العربيّة »، مجلّة المجمع، ج1، أكتوبر 1934، ص6.

2) مجمع اللغة العربيّة : المعجم الوسيط، ط3، القاهرة 1985، تصدير الطبعة الأولى، ص 10.

3) مجمع اللغة العربيّة : مجموعة القرارات العلميّة في خمسين عاما، القاهرة 1984، (326ص)، ص 222.

4) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 742.

5) الموضع نفسه.

وعلمية ذات بعد وإشعاع عربيين دورا كبيرا في ذلك. أما عن هذا القاموس في حد ذاته فإنّه، على مستوى الوضع وبالذات الترتيب، قد جاء» على قسط كبير من التنظيم والتيسير يفوق فيهما مدرسة اليسوعيّين التي تأثّر بمنهجها»[1]. وأمّا على مستوى الجمع فإنّ ملاحظاتنا على هذا القاموس كثيرة جدّا، ونوجزها في نقطتين اثنتين هما : الإفراط في تضمين القاموس الألفاظ العربية التراثية البدوية الأعرابية، من النوع الذي نجده في الرسائل اللغوية في القرنين الثاني والثالث للهجرة وفي القواميس القديمة، وكذلك الإفراط في إيراد البدائل الصرفية واللهجية للصيغة الواحدة دونما سعي إلى التنميط والتقييس والتفريط في الكثير من الألفاظ والمعاني المستحدثة التي ظهرت في القرن العشرين وحتى قبله سواء في عصر نهضتنا العربية الحديثة في القرن التاسع عشر أو إبّان عصور ازدهار الحضارة العربيّة الإسلامية في المشرق والمغرب. وإنّ كثيرا مما كتب عن «المعجم الوسيط» تمجيدا له وإشادة بما فيه من تجديد وما يتّصف به من حداثة، لم يعتمد متن هذا القاموس ولم ينقده من داخله، وإنّما صدّق ـ عن حسن نيّة ـ ما حفلت به مقدّماته العديدة من إطراء مبالغ فيه ورضًى عن الذات قد يكون ضرره أكبر من نفعه. ويكفي أن نعود إلى أي صفحة من صفحات هذا القاموس لنتبين مدى ما حشي به من ألفاظ حوشية بدوية غريبة متروكة[2] وخلوّه من ألفاظ حديثة ومعان جديدة استقرّت في الاستعمال الصحيح والمكتوب منذ عقود وأصبحت جزءا لا يتجزأ من لغتنا الضادية[3]، ممّا يقتضي تضمينها القاموس ليعكس تطوّر اللغة وحيويتها.

والخلاصة أنّ «المعجم الوسيط» على الرغم من بعض التجديد الذي يتّصف به على مستويي الجمع والوضع، ينطبق عليه ما قاله الأمير مصطفى الشهابي من «أنّ المعاجم العربية الحديثة (كمحيط المحيط وأقرب الموارد والبستان والمنجد وغيرها) ليست إلا صورة صغيرة مشذّبة للمعاجم القديمة (. . .) وتكاد سهولة المراجعة فيها تكوّن أهمّ ما لها من فائدة»[4].

---

1) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 741.

2) نقترح استعراض محتوى الصفحة 44 من الجزء الأول من الطبعة الثالثة (القاهرة 1985)، وفي هذه الصفحة نجد مداخل أصلية وفرعية كثيرة حوشيّة غريبة لا علاقة لها بلغة العصر وقد لا تهمّ إلاّ بعض الأدباء والباحثين. ومثال ذلك: بَدَحَ ،بَدَّ، أبَدَّ، بادَّ، ابتدَّ، تبادَّ ،الأبدُّ، بَدادِ، البِدادُ، البُداد، البدُّ، البِدُّ ، البَدَّة، البُدَّة، البِدَّة، البَديد، البدَرى، البَدْرَة، البُدرَة...

3) من البحوث الجيّدة التي أبرزت خلوّ «المعجم الوسيط» وغيره من قواميسنا الحديثة من الألفاظ العصريّة والمعاني المستحدثة نشير إلى ما يلي على سبيل المثال :

أ. أحمد شفيق الخطيب : «من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة»، في : جمعية المعجميّة العربيّة بتونس : المرجع المذكور سابقا، ص 597–636.

ب .–د.وفاء فايد كامل : «بعض مظاهر تغيّر الصيغ الصرفيّة في العربية المعاصرة»، في بحوث الندوة الدولية للمعاجم اللغوية والمختصّة (الكويت 14–17 مارس 1999)، الكويت 2000(250ص+95ص) ص181–235.

4) مصطفى الشهابي : المرجع المذكور سابقا، ص 40.

5.4 القاموس اللغوي العربي ما بعد الوسيط

صدرت من «المعجم الوسيط»، خلال حوالي نصف قرن، أربع طبعات جاءت الطبعة الأخيرة منها (عام 2003) دون تنقيح أو إضافة، إذ « هي نفسها الطبعة الثالثة للمعجم في ثوبها الجديد، وبدون ريب زوّدته لجانه في الطبعات الثلاث السابقة بزاد لغوي وافر، مما جعله يخطو إلى الكمال خطوات مهمّة»!! على حدّ تعبير المرحوم الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع[1]. وإنّ صدور طبعة جديدة بعد حوالي العشرين سنة من سابقتها دون أي تجديد يدخل عليها، دليل على ما تعانيه القاموسية العربية الحديثة من تقليد وجمود. وعلى الرغم من المآخذ العديدة التي وجهت إلى «المعجم الوسيط» وخاصّة على مستوى الجمع[2]، فإنّه لا مناص من الإقرار بما حظي به من استحسان وترحيب من المثقفين وبأثره الكبير في جلّ القواميس التي ألّفت بعده مشرقا ومغربا، بل إنّ هذه القواميس الجديدة تكاد تكون كلّها عالة عليه وصورة منه، وهو ما تثبته المقارنة الدقيقة.

ومن أهمّ القواميس اللغوية التي ظهرت بالوطن العربي بعد «المعجم الوسيط» القاموس الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1989 وعنوانه «المعجم العربي الأساسي»[3]. ومن مميّزاته عنايته بالألفاظ والمعاني المستحدثة والتعابير الاصطلاحية وألفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية.

ومن أهم هذه القواميس أيضا، بل لعلّه أهمّها إلى حد الآن، «المنجد في اللغة العربية المعاصرة»[4] الذي صدر عن دار المشرق سنة 2000. ويعدّ هذا القاموس تطويرا لـ«المنجد» الذي ألّفه الأب لويس معلوف اليسوعي منذ قرن والذي نال من الشهرة ما جعل اسمه مرادفا لمصطلح «معجم» أو «قاموس». ومن أهم مميّزات هذا القاموس تفتحه على اللغة العربية الحيّة المعاصرة، وشرحه لمداخله شرحا عصريّا كمثل الذي نجده في القواميس الفرنسية والانجليزية.

ومن الجهود الجديرة بالتنويه والتقدير ما ألّفه الأشقاء السعوديون وفي مقدّمتهم الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل صالح وزملاؤه. ونشير هنا إلى «معجم الطلاب ـ معجم سياقي للكلمات الشائعة» لمحمود إسماعيل صيني وحيمور حسن يوسف، وهو أوّل قاموس يعتمد السياق في تحديد معاني الألفاظ، ويتدرّج في عرضه لتلك المعاني من المحسوس إلى المجرّد، كما أنّه

---

1) مجمع اللغة العربيّة : المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدوليّة، القاهرة 2003(1067ص)، ص8.

2) انظر مثلا : د.عدنان الخطيب، المرجع المذكور سابقا، ص 56.

3) المنظمّة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم : المعجم العربيّ الأساسي، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العربي، لاروس، باريس 1989، 1347ص.

وانظر حول ما كتب عنه في :

أ. –د.عبد العزيز مطر: في نقد المعاجم والموسوعات، دار المعارف، القاهرة 1992 (141ص)، ص51–90.

ب. – د.مصطفى الغماري : ملاحظات على المعجم العربي الأساسي، الجزائر 2000، 176ص.

4) أنطوان نعمه وآخرون (محرّرون) : المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط2، دار المشرق، بيروت 2001، 1641ص.

يعدّ أوّل محاولة قاموسية تهدف إلى خدمة دارسي العربية من غير العرب. وقد تمّ اختيار مفرداته بناء على دراسات إحصائية[1].

ومن أهمّ الإنجازات القاموسية العربية في الفترة المدروسة « الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي »[2] الذي ألّفته « اللجنة الدائمة للرصيد اللغوي » لدول المغرب العربي ونشرته سنة 1976. وهذا العمل القاموسي قد انبنى على بحوث لغوية ميدانية، وتضمّن الألفاظ المستعملة المتواترة المكوّنة للرصيد المعجمي الحيّ.

وقد كان لمستعربي القرن العشرين إسهام مهمّ في تطوير القاموسية العربية والقاموسية الثنائية اللغة: العربية ـ الأجنبية، وذلك بفضل اعتمادهم في بعض ما ألفوه من قواميس على مدوّنات نصيّة حديثة، وبذلك ساروا في النهج الذي كان قد اختطه مستشرقو القرن التاسع عشر مثل لين مؤلّف « مدّ القاموس » ودوزي مؤلّف « تكملة القواميس ». وفي هذا السياق أشير بالذات إلى « معجم اللغة العربية المعاصرة » العربي ـ الانجليزي لهانزفير[3].

وفي العقود الثلاثة الأخيرة صدرت قواميس عديدة متوسّطة ووجيزة وأخرى للأطفال في مختلف البلدان العربية، وأصبح القاموس من الاهتمامات الكبيرة لدور النشر، إلاّ أنّ الجيّد من هذه القواميس قليل نادر، ولا يندر أن نعثر في كل صفحة منها بل في كلّ سطر أحيانا على تصحيف أو خطأ لغوي فادح أو قصور في الشرح والتعريف والاستشهاد[4]، إضافة إلى أنّها غالبا ما تكون صورا مستنسخة مصغرة من « المعجم الوسيط ».

6.4 القاموس اللغوي العربي والمعلوماتية

كان من نتائج ازدهار اللسانيات وظهور المعلوماتية في العقود الأخيرة وحصول التفاعل بين هذين العلمين أن نشط الاهتمام بحثا وإنجازا بالمعالجة الآلية للغة عامّة ولمعجمها خاصّة. وقد أثمر هذا التفاعل في الغرب قواميس لغوية عديدة اعتمد مؤلّفوها مدوّنة نصيّة واسعة تقدّر بملايين الصفحات أحيانا، مثلما يتضح من التجربة الفرنسية والتجربة الانجليزية. وهذه المدوّنة تختار بناء على معايير تأخذ في الاعتبار الأبعاد الزمانية والمكانية والموضوعاتية وغيرها لتكون ممثلة للغة المعنيّة.

---

1) محمود إسماعيل صيني وحيمور حسن يوسف : معجم الطلاب ـ معجم سياقي للكلمات الشائعة، مكتبة لبنان، بيروت 1991، 280ص.

2) اللجنة الدائمة للرّصيد اللغوي : الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي، تونس 167+171،1976ص.

3) هانز فير : معجم اللغة العربية المعاصرة، عربي ـ أنكليزي، وضع ج، ميلتون كوان، ط3، مكتبة لبنان، بيروت 1980، 1110ص وكانت الطبعة الأولى لهذا القاموس قد صدرت بألمانيا سنة 1961.

4) من القواميس العربيّة الرائجة في بعض أقطار المغرب العربي بالخصوص والمحشوّة أخطاء من جميع الأصناف القاموس التالي : الجيلاني بن الحاج يحيى وزميلاه : القاموس الجديد الألفبائي، الطبعة العاشرة، الأطلسيّة للنشر بتونس والأهليّة للنشر والتوزيع ببيروت، 1977، 1062ص +32ص.
وانظر في هذا القاموس الصفحة 17 على سبيل المثال حيث تعترض المراجع كلّ أصناف الأخطاء.

وفي الوطن العربي لا تزال المنجزات قليلة وإن كان الاهتمام بالموضوع قد بدأ منذ مطلع سبعينات القرن الماضي وخاصّة في مجال القواميس المتخصّصة في إطار معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط (المغربي) ومدينة الملك عبد العزيز بالرياض (باسم) . . .

وقد حملت لنا السنة الماضية (2007) بشائر مشروع جدي عملي لقاموسين لغويين حاسوبيين شرعت مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية في وضعهما بالتعاون مع بعض دور النشر العربية ذات الخبرة العالية. والقاموس الأوّل هو «المعجم اللغوي للمرحلة الابتدائية»، أما الثاني فهو» المعجم اللغوي للمرحلة الثانوية» . ويتمّ تأليف هذين القاموسين انطلاقا من مدوّنة نصيّة تتمثل، أساسا، في كلّ الكتب المدرسية المستخدمة في المرحلة الدراسية المعنية (الابتدائية، والثانوية). وبالنسبة إلى قاموس المرحلة الثانوية، أظهر جرد كلّ الكتب المدرسية 21868 لفظا مفردا ومركّبا هي كلّ الألفاظ المستخدمة فيها والتي ستكون مداخل لهذا القاموس بعد إضافة ما يراه المؤلّفون من ألفاظ أساسية لم ترد في العيّنة. وستشرح المداخل بحسب معانيها في المدوّنة وليس بنقل الشروح من المعاجم السابقة نقلا حرفيا، كما أن الأمثلة والشواهد ستكون مستقاة من المدوّنة نفسها. ولا شكّ أنّ هذا القاموس سيكون ، عند صدوره، قاموسا للغة العربية المعاصرة كما يتعلمها التلاميذ ويتعلمون بها الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم المادية، ولن يكون استنساخا للقواميس السابقة بما فيها «المنجد» و«المعجم الوسيط» وغيرهما.

وإذا كان القاموسان السعوديان اللذان تنهض بهما مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ليسا قاموسين حاسوبين وإنما هما قاموسان ورقيّان ـ على الأقلّ في المرحلة الأولى ـ ألّفا بالاستعانة بالحاسوب ـ وهذا في حدّ ذاته إنجاز عظيم ـ، فإنّ «القاموس الحاسوبي للغة العربية» الذي نأمله هو القاموس الذي يستعين مؤلفوه بالحاسوب لبنائه، لكنّهم لا يقتصرون على ذلك وإنما يبنون برمجيات مساعدة لبناء المعجم ولتمكين المستفيد من استعماله بسهولة وكفاءة ولأغراض متعدّدة تتجاوز أغراض القاموس المدرسي التعليمي. وفي هذا الصدد أكتفي بالإشارة إلى الدراسة المتميّزة التي صدرت للأستاذ مروان البوّاب في العدد 33 من مجلّة «التعريب» الصادرة بدمشق سنة 2007، بعنوان « نحو معجم حاسوبي للغة العربية»، ففيها من الفهم الصحيح لموضوع القاموس الحاسوبي التفاعلي للغة العربية ومن الأسس العلمية اللسانية والحاسوبية والتفاصيل الإجرائية ما يصلح قاعدة سليمة بل ممتازة لوضع القاموس المأمول.

الخاتمة

يعدّ الإنجاز القاموسي العربي القديم إنجازا عظيما رائدا على مستويي الكم والكيف معا. وقد جعل اللغويون الأوائل من القاموس العربي قاموسا وصفيّا عَكَسَ واقع اللغة العربية وإن كانوا قد تقيّدوا في هذا الوصف بقيود زمانية ومكانية اقتضاها حرصهم على الفصاحة وسعيهم إلى تنقية اللغة من الدخيل. إلاّ أنّ القاموسية العربية في عصور ما بعد عصر الاحتجاج سرعان ما أصبحت نقلا عن السابقين إلا في ما ندر، وأهملت جلّ ما لم يرد في الرسائل اللغوية من مولّدات أنتجها تفاعل اللغة مع المتغيّرات الحضارية، فأصابها الجمود وأصبحت لاتاريخية، ثمّ جاء عصر النهضة الحديثة فأعطى للقاموسية دفعا قويّا بإحياء القواميس التراثية وتأليف قواميس جديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن، في الأغلب، سوى تشذيب لـ «القاموس المحيط» و «لسان العرب». ولم يطوّر القاموسيون المحدثون نظرتهم إلى الفصاحة، لذلك أحجموا مثل السابقين عن لغة المعاصرين، فلم تواكب قواميسنا التطوّر اللغوي الكبير الذي عرفته العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

إنّ معجم اللغة العربية الحديثة والمعاصرة ـ أي مجموع ألفاظها أو متنها اللغوي ـ معجم حي متجدّد متطوّر مواكب للحراك الذي يعرفه المجتمع العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر، وذلك على الرغم ممّا تتعرض له اللغة العربيّة من مزاحمة العاميّات وهيمنة اللغات الأجنبية. ويفترض أن يعكس القاموس العربي الحديث تطوّر اللغة العربيّة وتجدّد معجمها، وأن يكون مرآة صادقة لنهضتها وحيويتها ومواكبتها للحضارة المعاصرة في كلّ المجالات وفي كلّ أنحاء الوطن العربي.

ومن المفترض أن تتصف مادة القاموس العربي بالغزارة والشمول، والدقة والوثوقية، وجودة العرض والترتيب، فيودّي وظيفته الأساسية أداة تربوية وعلمية وثقافية لا غنى عنها للمتعلم والباحث والمثقف. إلاّ أنّ واقع القاموس العربي الحديث مخالف لما نفترضه، وذلك بسبب غلبة نزعة التقليد كما أشرنا، وبسبب نظرتنا إلى اللغة نظرة لاتاريخية.

وإذا كانت الاستعانة بالمعلوماتية في العمل القاموسي وفي استرجاع مختلف البيانات القاموسيّة بطرق تفاعلية أمرا متحتّما اليوم، فإنّ محتوى القاموس اللغوي العربي نفسه يبقى أساس هذا القاموس التفاعلي، وبالتالي ينبغي إيلاؤه كامل العناية واستخلاصه من واقع اللغة العربية الفصيحة المعاصرة ليكون القاموس، عندئذ، آنيا لا زمانيا (تاريخيا)، وليصبح للعرب وللمتعاملين مع العربيّة من غير أهلها قاموس عصري لا في شكله فقط وإنما في محتواه أيضا وأساسا.